الباب السابع

فى الكوفة

« يخرج الحديث من عندنا شبراً
فيعود فى العراق ذراعاً »
ابن شهاب الزهرى

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها : كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قصبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود : وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني : فيذهب إلى علىّ . فإذا قال له على : ألا أرسلت إلى ؟ قال عمر : « إني أحق بإتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة : « أنت أعلمهم وأفضلهم » : بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها (على) :

وكان ابن مسعود أقرب الناس هدياً ودلا وسمتاً برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفاً دونه حتى ذاع المصحف العثماني :

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا ؟ قال : « يأهل الكوفة : أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام : وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » : ولما قدم علىّ الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقاً ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً : قال علىّ « ناشدتكم الله : إنه الصدق من قلوبكم » ؟ قالوا : « نعم » : قال : « : « أشهدك اللهم أني أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه : فقيه الدنيا عالم فى السنة » :

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعى وكان أشبه الناس به : وتلاهم أفذاذ فى طليعتهم إبراهيم النخعى فكان يفتى وينبسط للفتوى ولا يخاف إبداء الرأى : ثم جاء حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة وراوية إبراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج وبين الأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثاراً كالجراح ، إذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة علىّ ، وأخذ خصومهم يختلقونها لنصرة مخالفيه : أبي بكر مرة ، وطلحة والزبير مرة ، وبنى أمية مرات :

كما أخذ أنصار بنى أمية يختلقونها ضد العباسيين ، وأنصار بنى العباس يختلقونها ضد العلويين وضد الأمويين ، حتى قيل فى زمن متأخر إن الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث فى مقتل علىّ ، وتدخلت أطراف أخرى فى النزاع : المعتزلة وغيرهم يختلقون ضد الخوارج ويختلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعاً ؛ كما دس خصوم الإسلام أحاديث كثيرة على النبى ، ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى ، بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تختلق للخلفاء وللأفراد ولكل شىء : فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام وعن التمر والعجوة !

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين إلى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لاحق أن يقول إنه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح بن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال : « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحق فوضعتها حسبة » !

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا إلى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة إلى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق : « يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود إلى فى العراق ذراعاً » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله : « ما قيل من قول حسن فأنا قلته » ، فلينسب الوضاعون إذن كل الأقوال الحسنة إلى الرسول ! ذلك ما عبر عنه أحد المستشرقين تعبيراً غربياً بقوله : « إنهم يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول : هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو مستحب والنبى كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة فى الأمصار بعد وفاة النبى ، واشتجرت الآراء بينهم فى الفتاوى تبعاً لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن وإقبالهم على إبداء الرأى وتأثير البلدان التى استوطنوها فى آرائهم وتقليدهم ، ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار فى النواحى الأخرى وبخاصة الكوفة . إذ لم يكن مستطاعاً أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة ، وقد شاهدوها وشاركوا فى تطبيقها جيلا بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافاً :

ولم تصل السنة إلى الأمصار إلا على مهل ، فلم تظهر فى الحياة العامة فى العراق إلا فى سنة ١٦٠ . بل فى سجستان — فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع — كان الزواج يعقد فى أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الإصطخرى قاضى « قم » . وفى خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوى هو النضر بن شميل ضيعه قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعه ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين ، فلما اجتمعوا قال : « يعزّ علىّ فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول) ما فارقتكم » ، فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه ! ! وسار حتى وصل إلى مرو فى خراسان حيث جالس المأمون فى إقامته بمرو وعليه خلقان ، فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثاً واحداً فى مجلسه .

ولم تكن السنن فى كتاب ذى مناهج يعرف الناس نصوصه ومدى تطبيقه ، ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم : بل إن الولاة كانوا فى شغل بالدنيا عن الدين .

كان بنو أمية ملوكاً دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموى معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ذهباً . قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك . قال معاوية : « ما أرى بهذا بأساً » . قال أبو الدرداء : « من يعذرنى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه . لا أساكنك أرضاً » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يخترقوا ظلامها بسهام من

النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعاً للنظر فى المصالح وتعقل النصوص يزدرى الإمعات الطائعة ويقول : « اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك » : فالاستقلال والاجتهاد فى الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابراً عن كابر :

ففيم الخضوع للمسلمات إذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ وإذا سيقت الفكرة ففيم ينحنى المفكر أمام المفكر ! وإذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ وإذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ وإذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزاماً أن يسير الباحث إلى النهاية ، فيدرس الراوية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذى أتيحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية والعباسية الكبرى ، وتجرى بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم فى آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شىء حائل ومتنقل إلا هؤلاء ، الثابتين الصادفين عن أسباب الشحناء والسخائم ، يجودون بنشاط جسمى وفكرى عجيب ، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة : فليستجب هو وتلاميذه إلى الصوت الذى لا يخفت فى ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذى يهيب بالمؤمنين أن ضعوا حداً للفوضى : وأرسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام : والخطوط التفصيلية للقواعد التى يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسى ، فلم تعد جزيرة العرب إلا نواة أو مركزاً للدائرة :

وإذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة فى عالم السياسة هو الحضارة الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة فى عالم التشريع هو فقه أبى حنيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحرى الدقيق للروايات : فليناقش كل شىء حتى لا تذيع الأراء الزائفة وتذهب قواعد البنيان التشريعى الذى تأوى إليه الحضارة :

• • •

أفترى كانت المدينة المنورة فى وسط الجزيرة ، وهى قلب العالم الإسلامى ، تصبر على هذه الحركة الثورية ؟

إن للمدينة سلطانها الدينى والتاريخى الذى تعنو له الجباه : فهنالك أقام النبى وهنالك يثوى جثمانه . وهنالك عاشت الكثرة الغالبة من الصحابة وأمهات المؤمنين تتصدرهن الراوية النابغة عائشة بنت أبى بكر . وهنالك الرواة من هؤلاء والرواة عنهم ، يقتفون آثار زعيمى الحجاز عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكانة ومكانة وإلماماً بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلماته ، وبأحاديث الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البركة والكرامة ، تضفى على كل شىء فيها فيوضاً من التجلة والإكبار .

كانت المدينة كعبة القصاد لمن شاء أن يتفقه الدين والتاريخ والتفسير وما إليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهائها الاثنى عشر المعدودين — بارحها إلى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله فى الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به إلى المدينة ليعود ثانى العمرين اللذين يهز الإسلام بمفاخرهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حنيفة إمامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى وهو فى المدينة ، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ، ولم يكن من طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطئونه وجاهاً ، بل كان رجل تقاليد بحق ، يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحد صوته فى مجلسه ، وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدى فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ، ولما هم أبو جعفر أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاوره فقال : « أنشدك يا أمير المؤمنين لأتجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس » فصرفه عن رأيه .

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأنف مالك وتنزه عنه ، وهو

العليم بمكانة أبي يوسف من العلم . بل قال للرشيد : « ها هنا فتيان من قريش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين . ! »

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عبر عنه مالك الليث بن سعد بقوله : « إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط ، المشاكل فيها قلائل ، والوقائع تتشابه وتتشاكل . فإذا عرضت مسألة فإن لها أشباهاً في السوابق يحكماً في النصوص . يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيراً مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون ، ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع ، وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أي جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة فني ذلك الإقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة ، فإذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح المحيط الواسع الذي ينادي بالاجتهاد وبالرأي ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدنية كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت إلى الرأي الجديد ، لا تغني عنه النصوص القليلة المتداولة . جاءوا يدلون بدلوهم في الدلاء ، يتحرون ويتقرون لم تكد تهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن لتهدأ إلا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادي والفكري أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الإسلام ، وتحالف الركود الفكري والركود العسكري النسبي من ألف عام :

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار ، واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكاً بالرأي وبالتشدد في قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهي فتحول إلى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصة كقول القائل : « وضع أبو حنيفة أشياء في العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشنعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد : وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

غرب الوالى إلى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس أن تلقاه: فكانت تأتيه على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق » . فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى » . قالوا : « بيننا وبينه واحدة » . قال : « ما هى » قالوا : « نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات. فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء ، فالقول ما قال » . قال الأمير : « إن فى هذا الدليلا » . وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله . قال الأمير : ما بعدها شىء جردوه . فلما نظر إلى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على من أن يسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير ! ! فضحك الأمير وقال : « والله ما أضربك اليوم » وأمر بتخلية سبيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو إسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفة فى إبطال الوقف فذهب إليه الليث بن سعد يقول : « جئت مخاصمًا لك فى إبطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) » . ثم بعث إلى الخليفة يطلب عزله وهو يقول : « إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار إلا خيرًا » . وعزل الخليفة قاضيًا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبل اليوم فى سعة ... حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم ... فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة :

عندى مسائل لا شرشير يعلمها ... عند السؤال ولا أصحاب شرشير
ولا يصيب فصوص الحق يعلمها ... إلا حنيفية كوفية الدور

بلى : كانت هناك حنيفية وكوفية فى جانب ومدنيون فى الجانب الآخر ، بل

كان ثمة مدينتان تتباريان ، وإن شئت فقل مدنيتين أو فكرتين : الجديدة المستوفزة الراغبة فى الخلق والاندفاع ، والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح فى أبى حنيفة فى مجلس المأمون بعد أن يمدحه يعود مرة أخرى فيقول : لا تروِ عنا كل ما نقول فى أبى حنيفة فإنا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » ، وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوى — وهو من أئمة الحنفية — أنه كان يذاكر فى بعض المسائل أبا عبدَ الله بن الحسين بن حرب المشهور « بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبى حنيفة . فقال : « أيها القاضى أوكلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال : « ما ظننتك إلا مقلداً » ، فقال الطحاوى : « وهل يقلد إلا عصبى ؟ » قال : « أوغىً » ، وطارت الكلمة فصارت مثلا .

ولما قامت مدرسة الشافعى بعد نصف قرن من موت أبى حنيفة ، بوز خصم شديد ، وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن ، وإذا بملكين : بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن أيوب صاحب دمشق يقول لابنه عيسى شرف الدين : « يا بنى كيف اتخذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم إلى هوة الحقد فتدهور المبتدعون إلى حيث تعمى القلوب ، وإذا برجلين من « الخطابية » يستفتى أحدهما الآخر فى أن يشهد على شافعى بالكذب فيفتيه بقوله : ألست تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع فساده عن المسلمين .. ! !

وذات يوم أمر قاضى مصر الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبى حنيفة وأصحاب الشافعى جميعاً من المسجد

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوماً بين يدى السلطان فسألهم فى ببساطة : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا : من المدينة . قال : « عالم دار الهجرة يكفينا » وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : « لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان » .

وأخيراً ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض وأنزل الله على قارب الحزبين سكينة وأمنًا فكانت نار الخلاف بردًا وسلامًا ، وغدت وجوه النزاع سباقًا لنصرة الدين ، وكنوزًا نقلبها بين أيدينا لنأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقه جبارة تأتى بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق : « اختلاف أصحاب محمد رحمة » ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : « ما سرنى باختلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حمر النعم » ، وأنه قال : « ما سرنى أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » .

ولما قال الرشيد لمالك ليكتب : « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحمل الناس عليه كقانون مدون . قال : « يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح عنده : وكل على هدى : وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا . ولا ينجم العداء الفكرى إلا بين الحمقى والمتنطعين : ألا هلك المتنطعون .